الصّـــــورَة ..

قصة بقلم يوسف الحيدري

أنت أيضا تفرق كالآخرين في عرق غزير يسبح من جلدك المحرور الذي تتناثر فوق مساماته بثور حمراء تنزف دما .. وتظل أظافرك الطويلة تحك البثور بلذة عارمة حتى تنتشر فوق جسدك وذراعيك بشكل خاص .. وتحس بعد ذلك بانقباض وكأنك تعاني من آلام جرب مزمن لا يرجى منه شفاء ..وبعد أن تتأكد من الرقم والمنطقة تصعد بخطوات مضطربة الباص الاحمر الطويل الذي تكسرت نوافذه الزجاجية وتآكلت مقاعده فبدا وكأنه ينتظر من يودعه ـ الكاراج ـ الى الابد.. تهب على وجهك المعروق حفنة لاهبة من هواء جاف .. وتختار مقعدا في النهاية لتدس بهيكلك الخائر فيه ، وتظل عيونك كالعادة تتفحص الوجوه . .فانت تجد لذة غريبة في ذلك ـ بينما تظل أظافرك الحادة تحفر الاخاديد في ذراعيك ، فتسيل خيوط الدم الدقيقة من البثور المزقة لتتداخل مع بعضها فتشكل في النهاية لوحة دموية لفنان مهووس ، وحين تمتلىء المقاعد بالركاب .. يظل الاخرون واقفين وقد استندوا بأيديهم المرفوعة على العارضة الحديدية التي تخترق حوض الباص طولا ، وعلى وجوههم علامات امتعاض ، وبعد ان يتأكد ـ الجابي ـ الذي نمت شعيرات ذقنه بوضوح ، وبدت ملابسه الكاكية قذرة ـ من امتلاء الباص بالركاب ، يشق لنفسه وبصعوبة بالغة طريقا الى الوسط، حيث برزت على سقف الباص العلوي . دائرة حمراء ، فيمد اصبعه المرتعشة بعد ان يزعق من بعض الركاب الذين يعيقون مروره .. ويضغط ضغطة خفيفة ، فيرسل الباص المتلىء الثقيل هديرا مزعجا ، بعد أن ينفث سحبا سوداء من دخان كثيف . خانق ، وتندحرج الاطارات الثقيلة على الاسفلت الذي أخذ يموج من شدة الحرارة ، فتبدو آثار الاطارات المفروزة في القار واضحة .

بعد ان يسير الباص لدقائق قليلة يقف للحظات عند منطقة (القصر الابيض) الذي تقبع قبته البيضاء المستديرة فوق قاعدتها الصلدة بصمت ،فتمد عنقك كالعادة وبفضول كبير من خلال الزجاجة المحطمة لتلقي بنظرة متفحصة في باحة القصر الصيفية حيث يمتد بساط عريض من « الثيل » الاخضر المشذب بعناية فائقة، وقد انتشرت المصابيح الطويلة البيضاء في زوايا الباحة الكثيرة بشكل منسق جميل .

قبل ان ينعطف الباص من ساحة ـ النضال » يقف للحظات ثم يتجه نحو مستشفى دار السلام للولادة ، حيث تلمح على شرفته العليا ممرضة بملابس ناصعة . بيضاء ، تتحدث مع خادمة بملابس قذرة ، ومن الاسفل يبدو باب المستشفى الحديدي الضخم وقد انتشر فوقه الصدأ ، متآكلا من حافته السفلى .

حين ترفع عينيك عن الممرضة والخادمة وبوابة المستشفى الصدئة، تشق الصمت المخيم على المكان اصوات اقدام ثقيلة . متزنة . فتدير رأسك بفضول حيث تصدم عيناك بشاب يتدفق حيوية وهو في ملابس فدائي . يدير عينيه النفاذتين، المشعتين ببريق غريب بحثا عن مقعد خال ، وحين يفشل في ذلك ، يحاول اكثر من راكب ان يتنازل له عن مقعد غير انه يرفض ذلك باباء وعلى شفتيه بسمة مضيئة .ممتنة، ويضطر اخيرا الى ان يمد ذراعه اليمنى الى الاعلى حيث العارضة الحديدية التي يستند عليها ليحافظ على توازنه بينما يد الاخرى تشد بعنف على رزمة من المناشير التي تتحدث عن آخر أنباء القتال مع العدو الغاصب . هنالك . بعيدا .. داخل الارض المحتلة . مع صور للفدائيين الذين استشهدوا في الجبهة ، مع نبذة مختصرة عن العمليات البطولية التي قاموا بها ، وتكف أنت وللحظات عن تخديش جلدك وتحس بأعجاب كبير للفدائي الشاب الذي آثر مواجهة القضية بدمه، وتشعر بانك . ضئيل . مليء بالبثور والصديد والتطلعات اليومية التافهة وتجد لذة غريبة في متابعة حركات وسكنات الفدائي الذي يقف امامك عملاقا . مليئا بالمعنى ..والحياة الحقيقية .

بعد دقائق . تظل عمارة ـ سلمان وادي ـ هائلة . بطوابقها العديدة . تقبع جانب الرصيف وتبدو اللافتة المجسمة التي تحمل اسم صاحبها ، بارزة . تكاد حروفها البيضاء الضخمة تقفز فوق الرصيف الاسمنتي ، ويبدأ الزحام يخف تدريجيا ، حيث تتناثر على جوانب العمارة . أحياء ، سكنية أنيقة . ويتحرك الباص بعد توقف قصير فتهب نسمات خفيفة ، تجفف العرق الذي يسيل من جسدك، وتخف حدة الروائح النتنة التي تملأ المكان بفعل الزحام الشديد .. يجد الفدائي اخيرا مقعدا فارغا . قريبا منك ، فتشعر بنوع من الاطمئنان ، وتكف عن خربشة جلدك لفترة اطول ، وتبدأ عيناك المتلهفتان تأكلان كل جزء من كيان الفدائي ، وتتفرس عميقا في البقع الصفراء والخضراء التي تنتشر على ملابسه العسكرية ، وتحدق بأعجاب كبير في الشارة البرونزية المثبتة على ذراعه اليمنى وهي تشير الى منظمته الفدائية التي يعمل تحت قيادتها . يضغط ـ الجابي ـ على الدائرة الحمراء بانزعاج ، فتقف السلحفاة الحمراء كما يحلو لك ان تسميها أحيانا ـ بعد ان اوشكت على الحركة ليصعد أعرابي عجوز بملابس رثة وقد ارتدى عقالا وتدلت كوفيته البيضاء المتسخة واستطالت شعيرات ذقنه المدببة ، يقذف بهيكله بكلمات متقطعة لاهثة . ويدير عينيه المرمدتين في الوجوه بحيرة وقلق .. واخيرا يشير اليه الجابي ـ المتعب بالمقعد الفارغ ويرتمي العجوز بجسده الضئيل فوقه وقد ارتسمت على وجهه المغبر علامات الاستغراب فتحس للتو بأنه يزور بغداد للمرة الاولى في حياته . بعد أن قضى معظم سنوات عمره في أحدى قرى الجنوب النائية .

يمد ـ الجابي ـ التذكرة له ، وبعد ان يحدق العجوز في وجهه للحظات . يقول وقد بدأت الحيرة على وجهه المذهول :

ـ وليدي .. الله يخليك .. وين تصير .. بانزينخانة تل محمد ..

يجيب الجابي بعد ان ازداد عبوسا وهو يشير بيده في حركة لا مبالية

ـ راح نوصلها ... لا تستعجل .

يكف الاعرابي عن الكلام ، وكأنه محظور عليه داخل الباص ، وتظل عيناه المرمدتان تمسحان بحزن صامت وجوه الركاب .. بعد فترة طويلة، يدير وجهه نحو الفدائي وعلى شفتيه اليابستين شبح ابتسامة صفراء:

ـ وليدي .. الله يخليك .. انت همينة جندي .. مثل وليدي ووحيدي .. خضير ؟.

بحركة رشيقة . سريعة ، يلتفت الفدائي نحوه وعلى شفتيه بسمة عريضة ويجيب :

ـ اي .. عمي .. اني جندي مثل ابنك خضير .. بس جندي فدائي .. أقصد مكاني .. هناك .. بالجبهة .. وعندي اجازة ... كم يوم ..

صاح الاعرابي بصوت عال وقد فقد السيطرة على مشاعره الحبيسة

.. وبعد ان رفع كفيه المعروقتين للسماء :

ـ الله ينصركم .. يا اولادي .. اروح لكم فدوة .. ابني خضير .. همينة فدائي مثلك .. وهو بالجبهة .. اهناك .. بعيد .. يكولون .. بالاردن . . وبعد ان يصمت قليلا .. يضيف بحماس اكثر وقد التمعت عيناه وقرب راسه من الفدائي الذي كان يبدو لطيفا معه :

ـ وليدي ... كوللي ما تعرف ابني خضير ..و .. ما شفته ؟. هو .. زغيرون .. شاب مثلك .. وصارت مدة طويلة ما كتب لي مكتوب .. وآني فكري .. مشوش هواية عليه ..

تتسع الابتسامة على وجه الفدائي ويجيب بصوت هادىءعميق :

ـ عمي .. اني همينة ابنك .. وكلنا فدائيين .. نموت من اجل الوطن .. قاطعه الاعرابي وهو يضيف بحماس وتحرك راسه حركات سريعة . رتيبة :

ـ صحيح ياوليدي ... انت مثل ابني خضير .. الله ينصركم .. بس اشوف صارت مدة طويلة ما جاني منه خبر .. ولا مكتوب .. وما ادري وين صار .. وفكري هواية مشوش عليه ..

يقف الباص لدقيقة .. حيث ينزل معظم الركاب .. فيبدو المكان شبه خال .. ولم يبق سوى بعض الركاب المتناثرين هنا وهناك .. فوق المقاعد .. وكانهم بيادق الشطرنج ..ويسود صمت عميق .

يصيح الاعرابي فجاة .. مما يدع بقية الجالسين يديرون برؤوسهم الى الخلف وعلى وجوه البعض علامات الضيق والاستغراب.. اما انت .. فتكف نهائيا عن حرث جلدك المتسخ بأظافرك الطويلة ، وتغرق في فراغ عميق .. وتصدم اذنيك كلمات الاعرابي وهو لا يمل الحديث مع الفدائي الشاب الذي يجد هو الاخر لذة في الحديثمعه.

ـ وليدي .. هاي شنو .. هالوركات اللي شايلها بيدك ؟.

يعطيه الفدائي نسخة من بيان المنظمة الفدائية وعلى صفحة البيان صورة كبيرة لفدائي في عمر الورود استشهد فيميدانالشرف، على شفتيه ابتسامة مضيئة . وقد شدبيده على غدارته السوداء بأصرار عنيف .

يحدق العجوز باستغراب في الصورة .. دون ان يفهم شيئا . وتظل عيناه المرمدتان بين لحظة واخرى ترتفعان عن الصورة لتقععلى الوجوه الصامتة وعلى وجهه المغبر عشرات الاسئلة المبهمة التي تبحث لها عن جواب شاف يروي ظماه الشديد لمعرفة الحقيقة ..

واخيرا وبعد ان يضيق بصمته .. وصمت الاخرين يحدق في وجه الفدائي الذي يحس بانسجام غريب معه ويقول متسائلا بلهفة وخوف :

ـ وليدي .. ما تكوللي .. شنو هالصورة .. وليش شايلها وياك ؟ ..

يخيم حزن طارىء على وجه الفدائي الشاب ويغمغم بحزن :

ـ عمي .. هاي صورة فدائي شهيد .. سقط في المعركة .. اللي خضناها ويا العدو .. قبل اسبوعين .. وكنت آني وياه .. وكانفي الحقيقة بطل المعركة ..

يغمر الاعرابي ذهول غريب ويظل صامتا وكانه تمثال من صخرة عتيقة . متآكلة . يفرق كل شيء في صمت عميق .. وقبل ان تصل السلحفاة الحمراء الى نهاية المنطقة وتكف عن ارسال هديرهاالمزعج. ينفجر الاعرابي في بكاء مرير . وقد ضم صورة الشهيد الى صدره بحنان غامر وهو يردد بحرقة ومرارة محدقا في الصورة :

ـ أويلاخ عليك .. جنبك وليدي خضير .. خضير .. اويلاخ عليك .. اويلا خ..

وتبدأ شفاهه المرتعشة تطبع قبلات عميقة على تقاطيع الفدائي الشهيد ، وحين تهبط انت من الباص مجرجرا خطواتك بصعوبة .. تحس بحرقة تلسع جفنيك ..

بغداد ـ العراق

يوسف الحيدري

صدر حديثا

العمل الفدائي

انه ارشاد تطبيقي ميسر لمزاولة حرب المقاومة الشعبية والعمل الفدائي على أرض يحتلها العدو ، ويرفض أهلوها الاستسلام . فيه نظرة تاريخية وتقييم ممتع للعمل الفدائي: أصوله، وطرائقه،والاساليب الاجدى فيالدعوة اليه وممارسته والظفر بعد أدائه . وهذا ما نحن في الوقت الحاضر في أمس الحاجة انه . فالمؤلف رجل خبر حرب المقاومة الثورية والانتفاض على مختلف أعداء الشعب في أميركا اللاتينية والحرب الاهلية الاسبانية ، وهو يضع جميع خبراته في متناول اليد لكل من يود الانتفاع بتجارب السابقين . كما ان الترجمة سهلة متبسطة لا يعتريها التباس .

انه كتاب كل مواطن ، الفدائي للمناقشة والتطبيق ، والمواطن العادي للتأهب كي يكون فدائيا يوما ما . لهذا نجده يشرح افضل السبل لنصب الكمائن ولغم العربات المجنزرة ونسف مستودعات الذخيرة والتخلص من أفراد دوريات العدو . وفيه كيف يعيشالفدائي ورجل المقاومة ، وماذا يلبس في كل فصل ، وكيف يسلك مع الغير .

انه ثروة جاهزة للاخذ والتطبيق .

الناشر : دار الآداب بالاشتراك مع دار العلم للملايين

الثمن ٢٠٠ ق.ل.